



إهدارات مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية
كلية العلوم الإسلامية - جامعة الشهيد حمه نخضر - الوادي - الجزائر

فرقة البحث (P.R.F.U): تاريخ وادي سوف الثقافي بين 1900-1988م

بحوث الملتقى الدولي السابع المقاومة الثقافية لأعلام الفكر الإصلاحي في الجنوب الشرقي الجزائري ما بين 1900 - 1962م

بتاريخ: 05 و 06 ذو القعدة 1443هـ / الموافق ل 04 و 05 جوان 2022



المقاومة الثقافية في شعر محمد العيد آل خليفة *Cultural resistance in the poetry of Muhammad Al-Eid Al-Khalifa*

أ.د/ عبد الكريم حاقة

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية.

معهد العلوم الإسلامية، جامعة الوادي (الجزائر)

Ahaga66@gmail.com



ملخص: منذ أن وطئت أقدام المحتلين أرض الجزائر والشعب يقاوم، تارة بالسلاح، وطورا بالفكر، وقد برزت المقاومة الثقافية مطلع القرن العشرين. وفي هذه الورقة البحثية حاولت الإجابة عن الإشكال الرئيس الآتي: كيف تبلورت المقاومة الثقافية في شعر محمد العيد آل خليفة؟ حيث تمت الإجابة وفق خطة تبدأ بمقدمة وتنتهي بخاتمة، وتتضمن عدة مباحث أهمها المبحث التطبيقي الذي رصدت فيه شعر المقاومة الثقافية عند محمد العيد من خلال ديوانه. وقد توصلت إلى نتيجة هامة هي: أن شعر المقاومة الثقافية كان مبعوثا في ثنايا الديوان لا تكاد تخلو منه قصيدة.

الكلمات المفتاحية: الشعر؛ المقاومة الثقافية؛ الوطن؛ اللغة العربية؛ الإسلام.

Abstract :

Since the occupiers set foot on the land of Algeria, the people have been resisting, sometimes with weapons, and sometimes with thought, and cultural resistance has emerged at the beginning of the twentieth century. In this research paper, I tried to answer the following main problem: How did cultural resistance crystallize in the poetry of Muhammad Al-Eid Al Khalifa? Where the answer was carried out according to a plan that begins with an introduction and ends with a conclusion, and includes several topics, the most important of which is the applied topic in which I monitored the poetry of cultural resistance by Muhammad al-Eid through his poetry. And I reached an important conclusion: that the poetry of cultural resistance was spread in the folds of the Diwan, almost devoid of a poem.

Keywords: Hair; cultural resistance; Motherland; Arabic; Islam.

1. مقدمة:

الأدب للحياة، والأدب للمجتمع، والأدب للواقع، ولا مكان للخرافة التي تقول: الفن للفن، أو الفن للهو واللعب، أو السوربالية التي تتخطى الواقع لتجعل الفن شيئا فوق - واقعي، أو فوق - حقيقي. ولقد كان الشاعر محمد العيد آل خليفة شاعرا واقعيا، عاش هموم شعبه، وقضايا وطنه، وقد فرض عليه واقعه الوجودي أن يجد نفسه في سجن كبير، سجانه رجل أبيض غريب، ولكن بلهجة غريبة، قد ملك زمام الأمور، ومقاليد الحكم في هذا الوطن السليب. لقد فرض عليه هذا الواقع أن يكون شاعرا مناضلا، وأن يكون شعره نضاليا خاليا من كل ألوان العبث وضروب الترف والقصف والهجو، شعرا جادا رساليا حرا، له مهمة صعبة يؤديها وسط الأشواك والألغام، فقام برسالته خير قيام. وقد اخترت أن أتناول المقاومة الثقافية في شعر هذا الشاعر العظيم، بغية إبرازها من مكانها، لذلك طرحت هذه الأسئلة التي تمثل الإشكال الذي يحاول البحث الإجابة عنه، وهي كالآتي:

- كيف تبلورت المقاومة الثقافية في شعر محمد العيد آل خليفة؟

- وكيف عالج الشاعر قضايا الوطن وهموم الشعب؟

- وما المبادئ التي كان يركز عليها في مقاومته؟

وقد حاولت الإجابة عن هذه الأسئلة في هذا البحث المعنون ب: المقاومة الثقافية في شعر محمد العيد آل خليفة. وقد اتبعت منهجا وصفيا تحليليا، حيث أقوم برصد النماذج ووصفها وتحليلها، محاولا الوصول إلى مكان المقاومة الثقافية في شعر هذا الشاعر. وقد اقتضت المنهجية العلمية تقسيم هذا البحث إلى مقدمة بينت فيها الخطوط العريضة لهذا البحث والمعالج الهامة التي توقف القارئ على حقيقته. بعد المقدمة يأتي مبحث مخصص لمعرفة حياة الشاعر، لأن حياة الشاعر والظروف المختلفة التي مر بها دورا انعكاسيا على شعره، فكان لزاما أن نتعرف على ظروف نشأة الشاعر، لنتهدى إلى ما أثر في فنه وأدبه. ثم خصصت مبحثا تناولت فيه الحديث عن المقاومة الثقافية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي الظالم، فبينت فيه أن شعب الجزائر شعب أبي وحر بفطرته، لا يقبل الضيم، ولا يرضى على الظلم، ولا يرضى بالهوان، فقاوم أولا بسلاحه، ودفع الأرواح رخيصة في سبيل الله تعالى، ثم لما سكت الرصاص، أخذ يقاوم عن طريق الكتابة في الصحف، فظهرت المقاومة الأدبية الثقافية التي استمرت حتى انفجار الشرارة الكبرى وانطلاق الثورة العظمى، التي كلل الله جهادها بالنصر والتحرر والاستقلال، ولم يكف الأدب عن المقاومة، بل رافق الثورة التحريرية، فكان يشد أزر المقاتلين، ويسند ظهر المجاهدين، ويقدم لهم الدعم النفسي، ليصمدوا في وجه الآلة الاستعمارية المدمرة التي تأتي على الأخضر واليابس.

ثم يأتي المبحث التطبيقي، وهو موضوع البحث، وقد عنونت له ب: نماذج من شعر

المقاومة الثقافية عند محمد العيد، حيث رحت أجوس خلال الديوان، وتقلب في جنباته، وأنقب في أرضه، وأنتقل بين حدائقه وبساتينه، باحثا عن شعر المقاومة الثقافية، ولكن الأمر لم يكن سهلا، لأن الشاعر كان ذكيا جدا وحذرا جدا، لأنه كان في وسط الأتون بين ظهري اللهب محاطا بالنار والحديد، وجنود مدججين بالأسلحة الحديثة، والسجون التي تنتظر المخالفين في الرأي، فكان الشاعر يبطن نفسا ثائرة متوقدة، ويظهر لسانا ودودا، فمن الصعب إدراك مرامي الشاعر، ولذلك احتجت إلى أدوات الحفر لأنبش في تربة القصيدة عن بيت هنا أو بيت هناك فيه إشارة أو إيحاء إلى الثورة والدفاع عن حياض الأمة. ثم كان مسك الختام خاتمة أجملت فيها كل النتائج المتوصل إليها من البحث. وقد اعتمدت على مراجع أهمها ديوان الشاعر بطبعته، وكتاب: أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب لعمر بن قينة، وكتاب: الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية لمحمد ناصر، وبعض المعاجم المتخصصة، وفي الختام أسأل الله تعالى أن يضع لبحثي القبول، ويجعله نافعا لمن قرأه، حاديا للشادين من الشعراء كي ينهجوا نهجا قويمًا في نظم الشعر كما قال ابن الوردي في لاميته:

انظم الشعر ولازم مذهبي في اطراح الرد لا تبغي النحل
فهو عنوان على الفضل وما أحسن الشعر إذا لم يتنزل.

2. نبذة عن حياة الشاعر محمد العيد وآراء في شعره:

هو محمد العيد بن محمد علي آل خليفة من مواليد عين البيضاء في 28 أوت 1904 "الجزائر" وفيها تلقى تعليمه الابتدائي، وانتقل إلى بسكرة 1918 حتى سنة 1921 حين غادر بسكرة متوجها إلى تونس حيث درس بجامع الزيتونة سنتين عاد بعدها إلى بسكرة ليشارك في النهضة العلمية والصحافية، فشارك بقلمه في (الإصلاح) و(صدى الصحراء) و(الشهاب). وفي 1927 انتقل إلى العاصمة معلما فتخرج على يديه العديد من شعراء الجزائر، وغادر العاصمة في 1940 متنقلا بين باتنة وعين مليلة معلما، وبعد اندلاع الثورة ألقى عليه القبض وفرضت عليه الإقامة الجبرية بسكرة حتى الاستقلال، وقد عاش في بسكرة في عزلة صوفية انقطع فيها إلى نفسه، وأصبح قليل الإنتاج. وفي صيف 1979 توفاه الله بمدينة باتنة¹. وأسرة الشاعر تنحدر من قبيلة المحاميد العربية التي سكنت ليبيا في العهد الفاطمي، وانتقلت إلى الجزائر في العهد العثماني واستقرت بواد سوف جنوب شرق الجزائر ثم انتقلت

1- ينظر: الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية، محمد ناصر، دار الغرب الإسلامي، ط: 2، لبنان، 2006، ص: 666. وينظر أيضا: قاموس الأدباء والعلماء المعاصرين، محمد بوزواوي، دار مدني، (دط)، الجزائر، (دت)، ص: 31.

أسرة الشاعر أواخر القرن التاسع عشر إلى مدينة عين البيضاء حيث ولد الشاعر². كان الشاعر (محمد العيد) إلى جانب عمله في التعليم يسهم بفكره وشعره في الصحف العربية الجزائرية الوطنية، خصوصا صحف جمعية العلماء المسلمين وكان عضوا فيها منذ تأسيسها عام 1931 ملتزما خطها الوطني الإصلاحي³.

كان الشاعر (محمد العيد) صوت العروبة والإسلام في وجه الاحتلال الأوروبي الفرنسي النصراني، فحمل لذلك ألقابا كثيرة منها شاعر الشباب لقبه به أمير البيان المغاربي الشيخ البشير الإبراهيمي في وقت مبكر، ومنها أمير شعراء الجزائر وشاعر المغرب العربي ورائد الشعر الجزائري في العصر الحديث⁴. ويرى أمير البيان شكيب أرسلان رحمه الله أن (محمد العيد) يشبه الشاعر العباسي بهاء الدين زهير فيقول تحت عنوان: "البهاء زهير ينشر في هذا العصر، إن كان في هذا العصر شاعر يصح أن يمثل البهاء زهيراً في سلاسة نظمه، وخفة روحه، ودقة شعوره، وجودة سبكه، واستحكام قوافيه التي يعرفها القارئ قبل أن يصل إليها، وإن التكلف لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه، فيكون محمدا العيد الذي أقرأ له القصيدة المرتين والثلاثة ولا أمل وتمضي الأيام وعذوبتها في في"⁵. هذا كلام الأمير رحمه الله وهو جزء من قطعة نشرت بخطه في مجلة الشهاب ج: 1، م: 13، 1356 هـ. 1937م، وفي هذه القطعة يثني الأمير ثناء جميلا على شعر (محمد العيد) ويشبهه بشعر الشاعر الراحل بهاء الدين زهير الذي يعرفه الأدباء والشعراء بسلساله الرائق ونميره العذب ومورده الفرات، وشهادة الأمير هذه يعتز بها كل جزائري أصيل يشعر بفخر بانتمائه إلى هذه الأمة ولسانها المجيد.

وهذه شهادة أخرى وثناء آخر من عالم ضليع في العربية وهو رائد الأدباء وأمير البيان المغاربي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله يقرض بها شاعرنا العظيم (محمد العيد)، يقول: "شاعر مستكمل الأدوات، خصيب الذهن، رحب الخيال، متسع جوانب الفكر، طائر اللحمة، مشرق الديباجة، متين التركيب، فحل الأسلوب، فخم الألفاظ، محكم النسيج ملتحمه، متفرق القوافي، لبق في تصريف الألفاظ وتنزيلها في مواضعها، بصير بدقائق استعمالات البلغاء، فقيه محقق في مفردات اللغة علما وعملا، وقاف عند حدود القواعد

2- ينظر: ملامح المقاومة ضد الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة، مذكرة ماجستير في أدب الحركة الوطنية الجزائرية، إعداد: الطالب إبراهيم لقان، إشراف: أ د يحيى الشيخ صالح، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري. قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية: 2006. 2007، ص: 2، نقلا عن كتاب: محمد العيد آل خليفة. دراسة تحليلية لحياته، محمد بن سميعة، ص: 9/7.

3- ينظر: أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، عمر بن قينة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2000، ص: 81.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص: 80.

5- ديوان محمد العيد آل خليفة، محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، (دط)، الجزائر، 2010، ص: 8.

العلمية، محترم للأوضاع الصحيحة في علوم اللغة كلها، لا تقف في شعره- على كثرته - على شذوذ أو رخصة أو تسمح في قياس، أو تعقيد في تركيب، أو معازلة في أسلوب، بارع الصنعة في الجنس والطباق وإرسال المثل والترصيع بالنكت الأدبية والقصص التاريخية"⁶.

إن شعر (محمد العيد آل خليفة) رحمه الله كان مرآة صادقة لتدينه وتقواه ومبادئه وأخلاقه، وكان تعبيراً صادقاً عن خطه الإصلاحية خط جمعية العلماء المسلمين الذي تمثله المبادئ الثلاثة: الهوية الإسلامية، والعروبة، والوطنية. فلقد كانت مبادئ الشاعر تقف دائماً وراء شعره، فلقد خلا شعره من سفاسف القول وفضول الكلام، واتسم دائماً بالجديّة والعلمية، وفي هذا يقول الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله: "ومن يعرف (محمد العيد) ويعرف إيمانه وتقواه وتدينه وتخلقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره إنما هي من آثار صدق الإيمان وصحة التخلق ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء"⁷.

3. أدب المقاومة في الجزائر إبان الاحتلال:

أدب المقاومة "هو الأدب الذي يصور مقاومة الشعوب للاحتلال والاستعمار، وغالبا ما يشتمل هذا الأدب على أبعاد رئيسية ثلاثة: البعد الإنساني والقومي والاجتماعي"⁸ وأدب المقاومة نبع في الجزائر ليندند بالسيطرة الاستعمارية التي قوضت الوجود الثقافي للشعب وأنكرت واقعته القومي، فأدب المقاومة يدعو الشعب بأسره إلى النضال، فهو أدب نضالي لأنه يلهم الوعي القومي وينيره ويرسم حدوده، ويتيح أمامه مجالات جديدة لا حدود لها⁹. والحقيقة أن الشعب الجزائري، وإن قهره الاستعمار بقوة الحديد والنار، لم تنطفئ في جوانحه روح المقاومة، فقد وقف في وجه الاحتلال منذ أن وطئت أقدامه هذه الأرض الطاهرة، فتجسدت الروح الإسلامية المقاومة في البداية في شكل مقاومات مسلحة، كمقاومة الأمير عبد القادر والباي أحمد، والشيخ الحداد ولالة فاطمة نسومر وثورة أولاد سيدي الشيخ وغيرها، لكنها مع مطلع القرن العشرين اتخذت شكلا جديدا عرف بالمقاومة السياسية، حيث كان مضمارها الصحف التي كانت تصدر في الجزائر، وقد وجد الأدباء في هذه الصحف أرضا خصبة لنشر أدبهم المقاوم بلغة المستعمر وباللغة الوطنية الأصيلة أي اللغة العربية، ومن أبرز من مارسوا المقاومة الثقافية الأدبية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي كانت تمثل المرجعية والأصالة لهذا الشعب المقاوم، فانبرى كتابها وأدباؤها

6- المرجع نفسه، ص: 6.

7- المرجع نفسه، ص: 6.

8- المعجم الأدبي، نواف نصار، دارورد، ط: 1، الأردن، 2007، ص: 11.

9- ينظر: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، عبد العزيز شرف، دار الجيل، ط: 1، لبنان، 1991، ص:

يكتبون ويفضحون خطط المحتل الغاشم ولعل أشهرهم في مجال الأدب الكاتب العملاق الشيخ البشير إبراهيمي، والشاعر العظيم محمد العيد آل خليفة . رحمهما الله برحمته الواسعة.

وأدب المقاومة في الجزائر بدأ باكرا، فمع سكوت آخر رصاصية في مرحلة المقاومات الأولى، حتى تكلم القلم واستلم الراية، وانبرى الكتاب والشعراء يفضحون خطط المحتل ويكشفون عن المواضيع التي يضع عليها عينه مثل مسألة اللغة العربية، وقضية الانتماء الحضاري للأمة الإسلامية، وقضية البعد العروبي، ومسألة الهوية الوطنية. والشخصية الجزائرية التي ترفض الإدماج، ومسألة التفريق بين أبناء الشعب سواء على أساس الإثنية العرقية، أو على أساس الانتماء الصوفي الطريقي، وقد استطاع المحتل الظالم أن يستخدم مريدي بعض الطرق في صفه حتى بعد شروق شمس الجهاد المسلح، وهكذا كان الأدب وراء فضح المحتل ومقاومته بالتلميح والترميز أحيانا، وبالإفصاح والتوضيح أحيانا أخرى.

4. نماذج من شعر المقاومة الثقافية عند محمد العيد:

الشاعر محمد العيد آل خليفة حمل همّ القضية الجزائرية وهمّ العروبة والوطن وهمّ القضايا الإسلامية عموما في شعره منذ باكورة شعره. ولم يعرف شعره نزعات الهوى ونزغاته، ولا مال بشعره إلى ما يميل إليه الشباب في سنه من غزل ونسيب وتشبيب بالنساء، ولكن شعره كان كما وصفه الشيخ البشير إبراهيمي حين قال: رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل ناحية من نواحيها، وفي كل طور من أطوارها، وفي كل أثر من أثارها، القصائد الغر، والمقاطع الخالدة، فشعره . لو جمع . سجل صادق لهذه النهضة، وعرض رائع لأطوارها¹⁰. وقد تحققت أمنية الشيخ البشير فطبع الديوان بعد الاستقلال على نفقة وزارة التربية الوطنية يوم كان على رأسها الدكتور أحمد طالب إبراهيمي الذي كتب تقديمًا للديوان، وبين يديّ من الديوان نسختان، إحداها من طبع دار الهدى بعين مليلة سنة 2010 ولم يذكروا رقم الطبعة، والنسخة الثانية من طبع المؤسسة الوطنية للكتاب، وقد حملت رقم الطبعة الثالثة ولم تذكر تاريخ الطبع، ولكن تبدو متأخرة عن طبعة دار الهدى لأنها تضمنت تقديم الدكتور عمر بن قينة معنونًا بتقديم الطبعة الثالثة. والظاهر أن الطبعة الأولى كانت سنة 1965 بدليل أن الشاعر كتب مقطوعة بعنوان (اعتراف بالجميل) أرخ لها بتاريخ 10 شعبان 1385هـ الموافق لـ 8 ديسمبر 1965م قال فيها:

سيحمد ديواني ل(أحمد طالب) يدا منه طولى قدمته لينشرا

تحمل أعباء الوزارة قادرا فأورد عن رأي سديد وأصدرا

10- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق)، ص: 7.

ووكل بالديوان أكفأ نخبة بتبصرة أعطى بها القوس من برى

لقد أدلجت والصدق رائد ركبها فلا رب عند الصبح أن تحمد السرى¹¹

والديوان كما في طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب يتكون من 593 صفحة، وهو مرتب على حسب الموضوعات دون مراعاة التواريخ ولا أحرف الهجاء، فقسم للأدبيات والفلسفيات، وقسم للإسلاميات والقوميات، وقسم للأخلاقيات والحكميات، وقسم للاجتماعيات والسياسيات، وقسم للزوميات، وقسم للإخوانيات، وقسم للثوريات، وقسم للذكريات، وقسم للمتفرقات، وقسم للأناشيد. وفي هذا المبحث سأحاول أخذ نماذج من شعره تعبر عن روح المقاومة المثوية في نفس الشاعر منذ كان شابا، فقد عاش بهذه النفس الحرة التواقفة إلى شمس الحرية، إلى أن أشرقت على هذه الربوع الأنيقة الجميلة، ورفرف فوقها علمنا الأخضر البديع، بألوانه الزاهية المشرقة، وتحققت أمنية الشاعر الكبرى، فقد عاش شاعرنا حاملا بين جوانحه نفسا ثورية مكتومة، ولكنها كانت تتنفس في شعره تارة رمزا وإيحاء، وتارة تظهر سافرة في عبارات ظاهرة معبرة عن روح المقاومة الثقافية الشعرية. يقول الدكتور عمر بن قينة: "كان الشاعر (محمد العيد) ذا دور معتبر، وصاحب كلمة واعية، وذا ضمير وطني إنساني حي"¹²؛ ثم يردف قائلا: "(محمد العيد) الشاعر لم يخرج قط عن موروثه الحضاري العام، إيمانا صادقا في القول وتعبيرا شعريا عن قناعة وموقف وانفعال، وقد صارت وظيفة الشعر عربيا عموما وجزائريا خصوصا وظيفة نضالية في مسيرة الكفاح السياسي من أجل الحرية والاستقلال"¹³.

والمقاومة الثقافية في شعر (محمد العيد) يلمسها الدارس لشعره في كل فنون الشعرية التي نظم فيها الشاعر، حتى في القصيدة التي استهل بها الديوان وكتبها كمقدمة له واستهلال وهي بعنوان: "فاتحة ثناء وابتهاال" يثني فيها على الله عز وجل ويشكره ويسأله العون، ويختمها بالصلاة على النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - وفي هذه القصيدة لا ينسى دوره النضالي فيقول مبينا الغاية التي سخر شعره من أجلها:

جعلت الشعر في الدنيا نجبي فكان لخاطري كالترجمان

ولم أكف عن استنهاض شعبي به لأراه في أعلى مكان

لذاك رجوت أن يبقى كذخر لشعبي رافعا للذكر بانى¹⁴

11- ديوان محمد العيد آل خليفة، محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 3، الجزائر، (د)، ص: 587.

12- المرجع نفسه، ص: 5 من المقدمات.

13- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

14- ديوان معمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق)، ص: 9.

أما قصيدة الإهداء التي أهداها إلى شعب الجزائر البطل الثائر، وهي ثاني قصيدة تتصدر الديوان، يقول في أولها:

تحرر من أمسه القاهر وهب إلى غده الزاهر
ثم يقول عن دور الشعر النضالي في المقاومة الثقافية:
لقد بذر الشعر فيه الفدى وحسبك بالشعر من باذر
وما الشعر إلا شعور سما خيالاً بإيحائه الساحر
يهز النفوس بتياره فتسمو إلى الأوج كالطائر
أذبت عليه حشا مهجتي وما كل من طرفي الساهر
وعرضت نفسي لأخطاره بما ليس يعرض بالخاطر
وقفت على الشعب جهدي به وكرست عمري إلى الأخر
فديوان شعري بمرآته جلا غابر الشعب للحاضر

إن الشاعر يبين لنا في وضوح وجلاء رسالته الشعرية، تلك التي نأى فيها عن سفساف القول، وارتقى بها إلى القول الجاد المجاهد الذي يستنهض الهمم، ويبعث الحياة في الخشب، فلم يكن ينظم الشعر لأغراض فنية، بل كان شعره مقاوما للاستعمار وخططه التدميرية التي أراد بها إنهاء الإسلام والعربية من هذا البلد، وإحاقه بالغرب مسخا لا يصلح لشيء، وكما قال هو عن نفسه، فلقد جعل شعره وقفا على الشعب، وكرس حياته، وأقى عمره، وأذاب مهجته ونور عينيه من أجل أن يحيى هذا الشعب كريما بدينه ولغته وانتمائه الحضاري. أما في شعره التأملي¹⁵ الفلسفي¹⁶، وهذا الشعر وإن كان ينحو نحو الحكمة والتدبر في الكون وما يحيط بالشعر من مظاهر الحياة وتقلباتها إلا أن الشاعر في هذا النوع من الشعر، يطالعنا أحيانا بما يوحي بوعيه بدوره النضالي المقاوم، ففي قصيدة أسطر الكون وهي من قصائده التي نظمها في شبابه، ومطلعها:

سئمت على شرح الشباب حياتي فحرت ولم أملك علي ثباتي¹⁷

وهي قصيدة تأملية فلسفية يتحدث فيها الشاعر عن تأملاته في هذا الكون ويصف

15- التأمل : حالة من الاستغراق الذهني في عملية جد واعية لتداعي الصور والأفكار. ينظر: المعجم الأدبي

جبور عبد النور، دار العلم للملايين، ط: 2، لبنان، 1984، ص: 57.

16- الشعر الفلسفي هو الذي يتضمن حكمة مفيدة، تألفها النفوس، وترتاح لصدق القول فيها، وما أتت به من التجارب منها. ينظر: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ط: 2، لبنان، 1984، ص: 214.

17- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق)، ص: 17.

الكثير من مظاهر البؤس والفاقة والحرمان التي كان الشعب يعانها ويقاسمها ويتجرع علقمها، فكان الشاعر وهو يتأمل في صفحات الكون يشده إلى شعبه ومعاناته شعور خفي لا يستطيع الفكك منه، فيدفعه إلى السأم من الحياة التي كان يحس نفسه فيها سجين أغلال القهر والذل، من طرف استعمار كبل الشعب بأغلاله، وحطم كل آماله، وأيسه من حاضره ومن العيش الكريم فوق أرضه، فالذي يحيا في تلك الأجواء الاستعمارية الخائفة بغازاتها وغبارها، فإنه لا جرم يجتاح نفسه القنوط واليأس، ويتمنى الموت ولو كان في يفاع العمروريعان الشباب. ومع أن القصيدة كما أسلفنا قصيدة فلسفية ومع ذلك نجد الشاعر يغمز بمن يقفون ضد مصالح الشعب الحقيقية فيقول وهو يتحدث عن شعره:

وقوم رموها في غياهب جهنم ويا كثر ما في الجب من حشرات

أذقتهم كأساً من السم علقما وأوسعتهم طعنا بحد قناتي

وقلت لهم من يعيش عن نفع قومه أقيض له جيشاً من الكلمات

فكلمات الشاعر هي لكلمات موجعة يوجهها لمن لا يقفون مع قضايا الشعب وهذا من لب رسالة الشاعر النضالية المقاومة للاستعمار وأذنابه. وللشاعر قصائد يمكن تصنيفها ضمن الشعر الرمزي¹⁸، وهي قصائد تحمل في ظاهرها معنى لا يريده الشاعر، وإنما يغطي به على موضوع آخر ومن هذه القصائد قصيدة (أين ليلاي؟) التي مطلعها:

أين ليلاي أينها حيل بيبي وبينها¹⁹

فهذه القصيدة صاغها الشاعر في شكل غزلي، لكن من يعرف الشاعر وتربيته الدينية، وأخلاقه الإسلامية، وأهدافه النضالية، وروحه الوطنية، ومشاعره القومية، ومن يعرف آماله وتطلعاته، يدرك بلا شك أن هذه قصيدة رمزية، وأنه يرمز بليلاه إلى ليلى أخرى، وهذا ما دفع الإمام المجدد عبد الحميد بن باديس إلى التعقيب على هذه القصيدة في مجلة الشهاب التي نشرت فيها بقوله: "إن محمد العيد الذي يشعر شعور الشعب، ويتخيل خيال

18- الرمزية هي تقديم الموضوعات والأفكار بواسطة الرموز، أو إعطاء الأشياء معنى وطابعا رمزيا. ينظر: معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدنين، (دط)، تونس، 1986، ص: 172. ومن تعريفات الرمزية أيضا أنها: كل اتجاه في الكتابة فيه استعمال الرمز إما بذكر الملموس وإعطائه معنى رمزيا، أو بالتعبير عما هو مجرد من خلال تصورات حسية مرئية. ينظر: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب (مرجع سابق)، ص: 181. وتعرف الرمزية أيضا بأنها: اتجاه فني تغلب عليه سيطرة الخيال على ما عداه سيطرة تجعل الرمز دلالة أولية على ألوان المعاني العقلية، والمشاعر العاطفية، حيث يترجم الشاعر أفكاره ومشاعره إلى إشارات تعبر عن المعاني والعواطف بالصورة الرمزية فقط. ينظر: المعجم الأدبي، (مرجع سابق)، ص: 126.

19- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق)، ص: 41

الشعب... لا تفتنه وهو البلبل الغريد في قفص إلا الحرية²⁰.

وفي ديوان الشاعر قصائد كثيرة تدخل ضمن شعر المناسبات²¹. وقد تناول الشاعر عدة مناسبات دينية وغير دينية، وفي كل قصيدة تلحظ روح المقاومة الوطنية متطلعة وثابة مستوفزة متحفزة تود لو تنقض على جموع الغاصبين فترمي بهم في البحر الذي جاء بهم، أو ترمي بهم في أتون نار تلظى تشوي عظامهم ووجوههم، ففي قصيدة له قالها بمناسبة المولد النبوي الشريف، عنواها: (ذكرى المولد النبوي²²)، أنشدت هذه القصيدة في احتفال بالمولد النبوي أقامته جمعية الشبيبة الإسلامية بنادي الترقى على عادتها، ونشرت في جريدة البصائر سنة 1937م. في هذه القصيدة ظاهر وباطن، أما الظاهر فسرد لسيرة الرسول . صلى الله عليه وسلم . أما الباطن فحقد على الظالمين ودعوة للثورة عليهم، كما أن فيها تحفيز ديني يستميل عواطف الناس للتمسك بالعربية لغة الإسلام ولغة النبي . صلى الله عليه وسلم . الذي يحبه الجزائريون حبا عظيما فيقول:

نجي داعي الحسنى نجي داعي الضاد

وهو يقصد أن النبي . صلى الله عليه وسلم . كان حاميا للضاد، أي اللغة العربية، فإذا كان الشعب يحبه حقا، ويحتفل بموله حبا، فعليه أن يحمي اللغة العربية من مخططات الفرنسيين الصليبيين الحاقدين، وبعد حديث عن سيرة الرسول الأعظم . صلى الله عليه وسلم ، ينتهي إلى مساءلة التاريخ عن أمجاد المسلمين:

ألا يا حبذا ذكرى أقمناها لميعاد

بها نستعرض التاريخ من خاف ومن باد

ثم يمضي في مساءلة التاريخ في تسعة عشر بيتا، إلى أن يصل إلى مخاطبة جمهور الشعب يستهض همته، فيقول:

فردوا مجد ماضيكم وحوطوه بأرصاد

وقوا أنفسكم نا رعداوات وأحقاد

يزيد الخصم إيقادا لها من بعد إيقاد

20- المرجع نفسه، ص: 42. نقلا عن مجلة الشهاب، ج: 7، و14، في سبتمبر 1938.

21- شعر المناسبات شعر يكتب أو يقال خصيصا لمناسبات معينة، هي عادة الاحتفال بذكرى بحدث اجتماعي أو تاريخي أو أدبي، أو ديني، وقد يكتبه الشاعر بمحض إرادته، أو بتكليف رسمي. ينظر: معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، (مرجع سابق)، ص: 215. وينظر أيضا: معجم المصطلحات الأدبية، (مرجع سابق)، ص: 219.

22- ديوان محمد العيد آل خليفة، (مرجع سابق)، ص: 72.

أُتدشقون أضدادا وما أنتم بأضداد؟
فلستم غير أعضاء على الإصلاح أعضاء
أجيبوا كل إبراق من الباغي بإرعاد
ولا تعنوا لظلام ولا تحنوا لجلاد
بغت واستكبرت عاد فلم تغلب أبا عاد
دعا الله فلباه بإنجاء وإنجاد
وقيسوا الأمر إصدارا من الدنيا بإيراد
أعدوا نشاكم للخير فيها خير إعداد²³

ومن أجود قصائد الشاعر، التي تظهر فيها المقاومة الثقافية واضحة جلية، قصيدة وجهها الشاعر إلى الشباب، ناهيا إياهم عن الذوبان في الغرب، داعيا إياهم إلى إحياء الروح الشرقية العربية الإسلامية في نفوسهم، دافعا إياهم إلى امتطاء المعالي، وركوب الأمجاد، والطير على أجنحة العز إلى أبراج الخلود، والنهوض من سبات الأمانى والأحلام الجميلة، إلى أرض الواقع الصلبة، وقد صخورها لبناء صروح الحضارة العربية الإسلامية الجديدة يقول فيها:

أنت من عنصر الخلود لباب كن إلى المجد طامحا يا شباب
لك دين على الزمان عزيز يُبذل المال دونه والرقاب
لك ماض ما مثله قط ماض تتباهى بمجده الأحقاب
ولسان لم يدن منه لسان وكتاب لم يدن منه كتاب
يا شباب اتجه إلى الشرق واحفظ كل كنز له إليه انتساب
إنما الشرق نسبة العرب الأحرار لم تنقطع لها أسباب
إنما الشرق للعروبة كهف آمن الظل بالأذى لا يصاب
فادرس الكتب باحثا عن معاليك وسل صحفها ففيها الجواب
وتنكب عن السراب فما يغنيك شيئا عن الشراب السراب
ساءنا من شبابنا ناشئات طائشات تغرها الألقاب
عاكفات على مذاهب سوء وفساد كأنها أنصاب

23- المرجع نفسه، ص: 75.

نتمنى لك الثبات على الرشد وما أنت عندنا مستراب
نتمنى بالدين أن تتحلى من تحلى بالدين لا يعاب
إنما الدين لليوث عرين لا تغرنك بالعواء الذئاب
فاشأ للمجد طائرا في مجاليه طليقا كما يطير العقاب
هذه الأرض سوف تنبت عزا إن تصافت في ظلها أحزاب
أهيا الشعب أنت موضع شعري وشعوري لا زينب لا رباب
أهيا التابعون في عمل الخير ستأتي بأجرها الأتعاب
اصمدوا للعدى وإن ضايقوكم لا تهابوا من العدى لا تهابوا²⁴

هذه القصيدة البديعة تقطر ثورة وتحد، تكاد تميز من الغيظ، ترى الشرر يتطاير من جنباتها، وإن تكن جاءت في كلمات هادئة وادعة مسالمة، إلا إن بداخلها نارا تلتظي، فلا يظهر للمتعجل إلا كلمات عابرة تعبر عن شجون شاعر، لكن المتمعن يدرك عمق الكلمات ومدلولاتها: فهو يقول للشباب أنت من عنصر الخلود معدنك فكيف يليق بك أن تستسلم للعدو وتنصاع إلى مغرباته وتذوب في حضارته الشيطانية الزائفة، ثم يحفز فيه روح المتوثب المستوفز المتحفز الذي يهيم بالقفز ليحطم عدوه ويأخذ فريسته، فيقول:

كن إلى المجد طامحا يا شباب

وما المجد الذي يريده الشاعر إلا مجد الأولين، وهذا لا يكون أبد إلا باسترداد الأرض السليبية، واستعادة الوطن المستباح. بعد هذا التحفيز يدعو الشاعر الشباب إلى التمسك بمبادئ جمعية العلماء التي تحارب فرنسا ولا تزال في حرب مع أبنائها إلى اليوم، فيدعوه إلى التمسك بالإسلام والعربية والانتمائي الحضاري للشرق الإسلامي، فيقول:

لك دين على الزمان عزيز يُبذل المال دونه والرقاب
لك ماض ما مثله قط ماض تتباهى بمجده الأحقاب
ولسان لم يدن منه لسان وكتاب لم يدن منه كتاب
يا شباب اتجه إلى الشرق واحفظ كل كزله إليه انتساب
إنما الشرق نسبة العرب الأحرار لم تنقطع لها أسباب
إنما الشرق للعروبة كهف آمن الظل بالأذى لا يصاب
ثم يدعو الشاعر الشباب إلى ما يحقق له الأمجاد فعليا ألا وهو العلم، هذا العلم ينبغي

24- المرجع نفسه، ص: 237.

أن يدرسه ويأخذه من مظانه، وهي الأمهات في كل باب من أبواب العلم، وأن لا يقنع بكاذبات الأمانى التي سماها الشاعر سرايا، فالفرق شاسع بين الموارد العذبة والمناهل السلسيل والمجاري الفرات، وهذه مراجع الكتب العلمية، وبين سراب وهم يعده به شيطان الاستدمار، ليقوعه في الغفلة ويلبيه بالشهوات من خمر ونساء وقمار كما يفعلون في باراتهم مع نسائهم ونساء أصحابهم لا يغارون على حرمهم، قد قتلت الديانة فيهم روح الرجولة فماتت، فما يبالي الواحد منهم ما فعلت امرأتهم ولا مع من، يقول الشاعر:

فادرس الكتب باحثا عن معاليك وسل صحفها ففيها الجواب

وتنكب عن السراب فما يغنيك شيئا عن الشراب السراب

ثم يحذر أولئك الذين تأثروا بخطط الاستدمار، واستطاع العدو أن يستدرجهم إلى أوكار الفساد، وشوه أفكارهم، ولوث فطرتهم، فيدعوهم الشاعر إلى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويعودوا إلى وعيهم، فيقول:

ساءنا من شبابنا ناشئات طائشات تغرها الألقاب

عاكفات على مذاهب سوء وفساد كأنها أنصاب

نتمى لك الثبات على الرشد وما أنت عندنا مستراب

نتمى بالدين أن تتحلى من تحلى بالدين لا يعاب

إنما الدين لليوث عرين لا تغرنك بالعواء الذئاب

وفي الختام يدعو مجددا إلى طلب المجد، فهذه الأرض مزرعة خير وأمجاد، وهي أرض عزيزة منيعة لا تخضع لجبار عنيد، ويدعو أصحاب العمل الدعوي إلى مواصلة الجهود دون كلل ولا ملل، وأن لا يعبأوا بمضايقات المستوطنين والإدارة الاستدمارية، فيقول:

فأشأ للمجد طائرا في مجاليه طليقا كما يطير العقاب

هذه الأرض سوف تنبت عزا إن تصافت في ظلها أحزاب

أيها الشعب أنت موضع شعري وشعوري لا زينب لا رباب

أيها التابعون في عمل الخير ستأتي بأجرها الأتعاب

اصمدوا للعدى وإن ضايقوكم لا تهابوا من العدى لا تهابوا²⁵

وبالجملة فهذه القصيدة مثال على قصائد (محمد العيد)، التي إذا قرأتها قراءة سطحية وجدتها مجرد مواعظ باردة، فإن أنت تعمقت فيها عرفت أن تحت الرماد وميض نار، وأن تحت تراب القصيدة أتونا مشتعلة، توشك أن تلتهم كل شيء أمامها. لذلك لم

25- المرجع نفسه، ص: 237.

تتفطن فرنسا إلى خطورة أشعاره إلا بعد قيام الثورة المباركة، فألقي عليه القبض، وقدم للمحاكمة، وكان اتجاه المحكمة نحو إعدامه، ولكن الله تعالى أراد نجاته منهم، فاستطاع محاميه أن يؤثر على هيئة القضاة، وقال لهم: متى كانت الجمهورية الفرنسية، والقضاء الفرنسي يقتل من أجل الكلمة والرأي، فعدل عن قتله، وحكم عليه بالسجن، ثم بالإقامة الجبرية، إلى أن فرج الله كربته بالاستقلال والحرية.

5. الخاتمة:

إن الشعب الجزائري شعب مقاوم، رافض لكل أنواع الضيم والإكراه بجبّلته، ولكنه شعبا مسلما فإنه لم يتقبل الدخيل الذي جاء يأخذ أرضه وينتهك عرضه، ويحطم بنيانه، ويزلزل أركانه، ويهدم دينه، ويبعد ويحارب لغته، ويمحو شخصيته، ويقطع صلته بأبناء أمتة الكبيرة والصغيرة، لذلك لم تتوقف المقاومة المسلحة في الجزائر طيلة القرن التاسع عشر، ولكنها مع مطلع القرن العشرين اتخذت شكلا جديدا، إنها المقاومة السياسية والفكرية والأدبية، وكان مضمار المعركة الصحف الصادرة في الجزائر باللغة الوطنية العربية أو بلغة المستدمر، وقد نتج عن هذا الوضع الجديد ظهور مجاهدين بأقلامهم، كانوا سببا في فضح مخططات الاستعمار، وكشف كيدته وتلاعباته بالقضية الوطنية، ومن بين الأدباء الشعراء الذين ظهوروا في هذه المرحلة الشاعر المجاهد (محمد العيد آل خليفة).

لقد كان الشاعر (محمد العيد) متشبعا بمبادئ جمعية العلماء المسلمين التي كان أحد أعضائها المؤسسين، وقد ظهرت هذه المبادئ في شعره بجلاء، من خلال دفاعه عن الإسلام، واللغة العربية، والهوية الوطنية، والانتماء الحضاري للأمة الإسلامية والعربية. كما كان يدعو أبناء الجزائر إلى التمسك بهذه المبادئ في كل مناسبة من المناسبات.

وقد خلا شعر (محمد العيد) من الغزل والتشبيب بالنساء حتى في باكورة شعره، لأن الشاعر شعر وأحس بهموم شعبه منذ شبابه وبداياته الشعرية الأولى، فكان منصرفا عن مراتع اللهو، ومقاصف المجون، وما يتقصده الشباب عادة من التعلق بالإناث عند تفتح الغريزة الجنسية، وما يحدث في الجسم من تغيرات فيزيولوجية، وما يتبعها من تغيرات نفسية، وميول فطري نحو الأنثى، وكل هذه الأمور عالجه الإسلام قبل أن تقع المحاذير، فأمر الإناث بستر المحاسن مع البلوغ وعدم إبداء الزينة، ومنع الخلوة بين الذكر والأنثى، وفصل بين الجنسين، ليمنع وقوع الكوارث الإنسانية، وشاعرنا (محمد العيد) قد تخطى هذه المرحلة مستظلا بظلال القرآن الوارفة، فلم يظهر في شعره شيء من الغزل والتصبي، ولكن شعره كله أوقفه على شعبه، يسر حيث يسر الشعب، ويحزن لحزنه، وقد أخذ على عاتقه رسالة التنوير والإصلاح، لإنقاذ الشعب من كيد الاستعمار الذي كان يمكر بالليل والنهار لإبعاد الشعب عن دينه ولغته وأمته، وربطه بفرنسا انتماء ووجودا.

كان الشاعر (محمد العيد) يحمل في جوانحه نفسا ثائرة، وكان بداخله نار انعكست على حياته وشعره، وفرضت عليه حزنا دفيناً، فكانت النار التي يحملها حقداً على الكفار الصليبيين قد تحولت إلى نار في شعره، ولكنها نار مدفونة تحت تراب الكلمات والعبارات، تحتاج إلى حفريات ذكية للوصول إلى طبقتها والكشف عنها، فالشاعر كان يبدو لطيفاً في كلماته، ربما لأن القبضة الاستدمارية الحديدية جعلته ينأى عن التصريح إلى التلميح في أكثر الأحيان، حتى يتجنب العراقيين، والحيلولة دون أداء رسالته.

تنوعت الأغراض في شعر (محمد العيد)، وتعددت الموضوعات، ورغم ذلك كله فلا تكاد تجد قصيدة في الديوان تخلو من تحريض مبطن، أو رفع للمعنويات الوطنية، أو دفاع عن القيم الإسلامية، أو تجسيد لمبادئ جمعية العلماء، فكل ديوانه دفع نحو الثورة، وتوق إلى شمس الحرية ونسيمها العليل، فكأن الدنيا بما رحبت كانت على الشاعر سجنًا محكم الغلق مفتول القضبان، وكأنه مختنق لا يجد هواء يستنشقه، فشعره يدل على روح مقاوم، ونفس مناضل، ويدل على نار الثورة تتأجج بداخل الشاعر، يكتمها حيناً، وتنفلت منه أحياناً في عبارات لا تحتتم تفسيراً إلا التحريض على الثورة، فتجده يغلفها حيناً بألفاظ العمل الخيري ومثيلاًتها، وأحياناً تجدها عبارات سافرة صاعقة لجماعات المعمرين وإداراتهم.

إن المقاومة الثقافية في شعر (محمد العيد)، تبدو للمتماثل المدقق حاضرة في كل شعره، هذه المقاومة الثقافية كان لها دور بارز في إفساد مخططات فرنسا في الجزائر، والتي لا تزال مستمرة إلى اليوم على أيدي أبناء (فافا)، الذين يسهرون على مصالحها في بلادنا، وقد توصلت تلك المخططات إلى ما لم تتوصل إليه إبان الاحتلال، وقد يكون ذلك راجع إلى اطمئنان الكثير من المثقفين بعد الاستقلال، فالوضع مختلف، فلا فرنسا حاضرة بوضوح، ولا عساكرها تجوب البلاد، ولا أعلامها ترفرف فوق الربوع، مما يجعل المثقفين يركنون إلى الدعة والخمول، بدل مقاومة الأفكار المسمومة التي تزرعها فرنسا عبر أبنائها في عقول الناشئة، لكن إبان الاحتلال كان مجموع الشعب يشعر بالمدلة والهوان، ويعلم أنه شعب مغتصب، وأرضه مغتصبة، فلا حرمة له ولا مكانة، ويعلم كل الشعب أن لا سبيل إلا بالمقاومة، لذلك آتت المقاومة الثقافية أكلها في الثورة المباركة المجيدة التي كلل الله مجهوداتها بالحرية والاستقلال.

6 . المصادر والمراجع :

- أعلام وأعمال في الفكر والثقافة والأدب، عمر بن قينة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2000.
- ديوان محمد العيد آل خليفة، محمد العيد آل خليفة، دار الهدى، (دط)، الجزائر، 2010.

- ديوان محمد العيد آل خليفة، محمد العيد آل خليفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط: 3، الجزائر، (دت).
- الشعر الجزائري الحديث - اتجاهاته وخصائصه الفنية، محمد ناصر، دار الغرب الإسلامي، ط: 2، لبنان، 2006
- قاموس الأدباء والعلماء المعاصرين، محمد بوزواوي، دار مدني، (دط)، الجزائر، (دت).
- المعجم الأدبي جبور عبد النور، دار العلم للملايين، ط: 2، لبنان، 1984.
- المعجم الأدبي، نواف نصار، دارورد، ط: 1، الأردن، 2007
- معجم المصطلحات الأدبية، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحدنين، (دط)، تونس، 1986.
- معجم مصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ط: 2، لبنان، 1984.
- المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، عبد العزيز شرف، دارالجيل، ط: 1، لبنان، 1991.
- ملامح المقاومة ضد الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة، مذكرة ماجستير في أدب الحركة الوطنية الجزائرية، إعداد: الطالب إبراهيم لقان، إشراف: أ د يحيى الشيخ صالح، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية: 2006. 2007.